أثر الزمن الفاصل في رسم العلاقة بين زمن الحدث وزمن استدعائه
قراءة لمذكّرات السيّدة سالمة

د. فوزية الفهدي (سلطنة عمان)
دكتوراه الفلسفة في اللغة العربيّة وآدابها
(سلطنة عُمان)

الملخّص:

نسعى في هذا البحث إلى استكناه ماهيّة الزمن في كونه مقياساً لوجود الأشياء، ودوره في إحداث أثر تتغيّر بفعله الاتّجاهات، وتتحوّل الرؤى وأطر التفكير، ويطرح البحث سؤالا مهما يتلخّص في دور المسافة/ المكان في إحداث هذا الأثر المقاس بالزمن.

يعدّ الزّمن ثيمة وجوديّة ارتبطت بالأحداث وأماكن حصولها، وهو كيان مؤثر بالتتابع القبليّ والبعديّ، معنيّ بالقياس والإطلاق، ومن ذا يكون الزمن مرتبطاً بعُمر الإنسان، وأحداثه المتتابعة، وكفيلاً بأن يرسم أثراً ويمثّل عاملاً مؤثراً في تحديد لحظة الاستدعاء للكتابة عن أحداث حصلت في زمن سابق واستشراف رؤى لزمن آتٍ.

يعدّ كتاب "مذكّرات أميرة عربية" سيرة ذاتيّة للسيّدة سالمة بنت سعيد بن سلطان آل سعيد (١٨٤٤م- ١٩٢٤م)، كتبته في ألمانيا بعد أن تخلّت منذ أكثر من قرن عن أسرتها، وهجرت وطنها وملك أبيها في عمان وزنجبار لترحل إلى برلين بعد أن تزوجت بألماني، وقررت أن تعيش في برلين، ثم تقرر أن تكتب كتابا عن حياتها بعد أن تغيّر اسمها إلى إميلي رويته.

نسبر في هذا البحث كيف كان للزمن تأثيره وعمقه بين لحظتين فارقتين هما: لحظة وقوع الحدث/ زمن القصّة، ولحظة الكتابة/ زمن السّرد أو زمن استدعائه، وفي هذا نعمّق النظر في أهم أطر الشعور بالوجود والتوق إلى الحرية في زمن كانت فيه الأميرة على تماسّ مع مفهوم العبوديّة، فتولّدت مع الزمن رغبةإلى الحرية، ثم ندرس تأثير مرور الزمن ليكون عاملا من عوامل استدعاء زمن آخر ليكون لذّة تمارسها الذّات تستمدّ منها القوّة على مقاومة اللّحظة الراهنة وما تعانيه فيها، بعد أن تكالبت الأحداث على امرأة تربي أبناءً في أرض لم تولد فيها.

نسأل في البحث عن علاقة الهُويّة بالزمن، ونقرأ النصّ في إطار حركة الوقت، وما تحدثه في الهويّة، وما الذي يغيّر انتماءاتها، ثم يأتي زمن آخر لتستدعي الذات فيه زمنا آخر تبحر معه إلى مكان وزمان آخرين، فما طبيعة هذه الهوية التي تأخذ من الزمن عاملا من عوامل الوجود والبقاء؟ ثم كيف تحرّك الزمن في السيرة؟ وهل شكّل الزمن الفاصل عاملا من عوامل التأثير لتكون هناك علاقة بين زمن الحدث وزمن استدعائه؟ وكيف نمثل لهذه العلاقة؟

المقدّمة:

إذا كانت الهيرمينوطيقا سبيلاً تعين القارئ على فهم النصوص وإدراك طبيعة اشتغالها للخلوص إلى تأويل عقليّ، فإنّ النصّ يبقى العالم الإنسانيّ العميق الذي تتحرّر به النفس الإنسانيّة من قيود العلم، لتنطلق في آفاق الإبداع عبر أزمنة سابقة ولاحقة محلّقة عبر المكان والتاريخ؛ لتثبت أنّ الإنسان كيان بالغ في التعقيد والتأويل في الوقت نفسه.

هل للزمن الفاصل بين زمن الحكاية/ الحدث، وزمن السرد/ الخطاب أثر كبير في تحديد أطر الخطاب السردي، وانتقائية بؤره الزمنيّة؟ إنّنا نسعى جاهدين إلى إيجاد مخرَج علمي تأويلي لإمكانيات دراسة هذا الأثر في تحديد بؤر السرد، وانتقاء الأحداث لرسم سيرة ذاتية تؤثر في القارئ أثناء زمن القراءة، بما يخلق تعاطفا تاريخيا مع شخصيّة السارد في السيرة الذاتية التي نسجت سيرتها عبر مذكرات تلتقي مع التاريخ حيناً، وتلتقي بالذّات حيناً آخر، في ازدواجيّة سرديّة تحمل عبق التّلاقي بين الشرق والغرب.

المبحث الأوّل: المنطلَق المنهجيّ لمفهوم الزّمن:

يُعدّ الزّمن عنصراً رئيساً من عناصر القصّ، يختلف عن لفظة الزمان، لأنّ الزّمان مطلق ووجودي يمكن تحديده بالمدى ما بين الأفعال،" فهو حركات الفلك من اللّيل والنهار والتي هي الأوقات على نحو أخصّ، أمّا الزمن فهو حركة الأجسام المدرَكة، أي أفعال الإنسان على نحو أخصّ، فالإنسان هو وحده الذي ينتج زمن فعله، فالزمن وعي وإدراك لفعل الإنسان في الواقع.

للزّمن أثر كبير في الفنون الأدبيّة، ذلك لأنّ الزمن الأدبيّ زمن إنسانيّ، فهو زمن التجارب والانفعالات، زمن الحالة الشعوريّة التي تلازم المبدع. فهو ليس زمناً موضوعيّاً أو واقعياً فقط، بل هو زمن ذاتيّ ونسبيّ بين مبدع وآخر؛ لأنّه غنيّ بالحياة الدّاخليّة للفرد والخبرة الذاتيّة له.

ويؤكّد هيدجر وبرغسون على أنّ الزّمن الوجوديّ الخاصّ بالإنسان يتعارض مع زمن الفلك، وزمن الوجود الخارجي، وزمن الساعة، لأنّه زمن خاصّ بالإنسان – الزمن الدّاخليّ– وقد صار أحد جوانب الموضوعات الأساسيّة في الأدب. تعيش الذات هذا الزمن وتدرك تقلباته التي لا تدخل في إدراك ذات أخرى إلّا عندما تقرّر الذات نقل التفاصيل إلى الآخر، فتخلع الذّات المتلفِّظة على خطابها جملة من المؤثِّرات الخطابية في مرحلة التلفّظ لتوثِّر في المخاطَب، ويكون الملفوظ حينها جملة من الاستدعاءات والاسترجاعات الزمنية التي تشبّعت بها ذات المتلفِّظ.

وقبلهما صرّح القدّيس أوغسطين أنّ الزّمن يوجد في الذاكرة الإنسانيّة، وهو ما جعله يصرّح قائلاً: " إنّ طفولتي التي انتهت توجد في الزّمن الماضي الذي انتهى؛ لكنّ صورتها أتأمّلها في الزمن الحاضر؛ لأنّها مازالت في الذاكرة"، فالذاكرة حين تكون مشحونة بالصور المتلاحقة، فإن الذات تعيش زمناً خاصّاً بها ينقلها من الزمن الحاضر إلى زمن آخر، وتظلّ ديمومة الشعور بالزمن متواصلة من خلال الحياة النفسيّة للذات؛ لأنّ ما يعمّق إحساسنا وشعورنا ذاكرة تجرّ الماضي بقوّة لتمزجه بالحاضر، فهي امتداد لا منقطع لحاضرنا، إنّها ديمومة متواصلة لا نشعر بانقطاعها وتتابعها"[1].

إذن فالزمن الذي نركّز عليه هنا هو الزمن الذي شحنت بأحداثه الذاكرة، وما مارسته هذه الذاكرة من عمليات استرجاع وبلورة لفترات زمنية معينة دون غيرها؛ لترسم لنا ملامح فترة زمنية من الماضي نستطيع من خلالها أن نوجد علاقة ارتباط بين زمن حقيقي وجودي وزمن إنساني نفسيّ.

وقد تعدّدت تسميات الزمن في المباحث السّرديّة. فهناك زمن الحكاية الذي ورد مرتبطاً بزمن الخطاب عند أغلب دارسي السّرد، على اعتبار أن " لا وجود للحكاية بأحداثها وشخصيّاتها وأمكنتها وأزمنتها خارج الخطاب الذي يرويها. بيد أنّ تحليل هؤلاء الباحثين لزمن الخطاب كان منطلقاً دوما من ضبط العلاقة بين زمن الأحداث وكيفيّة سردها من حيث الترتيب، والمُدّة، ودرجة التواتر؛ مّما يجعل التحليل قائما بالضرورة على تمثّل لمعطى زمنيّ وحدَثيّ يقوم الرّاوي باعتماده والتّصرّف فيه وفق رؤية محدَّدة"[2]، وكان ذلك من إضافات جيرار جينيت (Genette) في كتابه "خطاب الحكاية"، والذي انطلق فيه من تقسيم طودروف، حيث قسّم الأخير مسائل الحكاية في ثلاث مقولات: مقولة الزمن التي تبحث في العلاقة بين زمن القصّة وزمن الحكاية، ومقولة الجهة التي تبحث في الكيفيّة التي يدرِك بها السارد القصّة، ومقولة الصيغة التي تُعنَى بنمط الخطاب الذي يستعمله السّارد.

اهتمّ تودوروف في مقولة الزمن بالتشويهات الزّمنية التي تكتنف الخطاب، وهي عمليّة يتجلّى فيها عدم الإخلاص للترتيب الزّمني للأحداث، وفيها عالج علاقات التسلسل أو التناوب أو التضمين بين مختلف خطوط العمل المشكِّلة للقصّة، مضيفاً زمن النّطق أو زمن الإدراك السرديَين، اللذَيْن يمثّلهما مع زمن الكتابة وزمن القراءة.

١- الأطرش (رابح)، مفهوم الزمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانيّة، جامعة فرحات عبّاس، سطيف، مارس ٢٠٠٦، ص٢٧

٢- القاضي (محمد) وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص٢٣٠

ومن هنا "يمكن أن نعرّف زمن الحكاية بأنّه الزّمن الحقيقي أو المتخيَّل الذي تدور فيه أحداث القصّة المرويّة، ففي أجناس السّرد المرجعي كالسيرة، والسيرة الذّاتيّة، والمذكِّرات، واليوميّات والرّحلات تكون الأحداث حقيقيّة، أو مقدّمة باعتبارها حقيقيّة، وتكون حدثت بالضرورة في زمن تاريخيّ سابق للسّرد، وفي أجناس السّرد التخييليّ تكون الأحداث متخيَّلة"[١]

أمّا زمن السّرد فيتعلَّق "بتحديد موقع الحكاية الزّمني من الفعل السّردي، ويشكِّل زمن السّرد مع المستوى السّردي والشّخصيّة المقولات الثلاث التي يدرس من خلالها المقام المنتج للخطاب السردي، وتكتسي تحديدات المقام السردي الزّمنيّة أهميّة لا تكتسيها تحديداته المكانيّة؛ وذلك أنّه بالإمكان أن تروي قصّة دون تحديد المكان الذي تُروى منه، ومدى بعده عن المكان الذي تجري فيه الأحداث، ولكن يستحيل ألّا يحدَّد موقعها الزّمنيّ في الفعل السّرديّ ما دامت تُروى بالضرورة في الزمن الحاضر أو المستقبل، وقد ميّز السّرديون من هذه الزاوية بين أربعة أنماط من السرد: السرد اللاحق، والسّرد السابق، والسّرد المتزامن، والسّرد المدرّج"[٢]، ويعدّ زمن السرد بالتالي معطى لسانيّا دالّا في إمكانيّات التحليل والتأويل التي تعين في عملية إدراك وفهم النصوص السّرديّة.

ويتضمّن زمن القراءة دلالتين: زمن القراءة الفعليّ وعصر القراءة. " فالأوّل هو الزّمن الذي يحتاج إليه القارئ المفرد لقراءة النصّ، وهو لذلك غير محدَّد تحديداً دقيقاً بالنظر إلى اختلاف تجارب القراءة، وتفاوت القرّاء من حيث السّن والثقافة والمقصد... ولزمن القراءة بعد ثانٍ يتّصل بتعدّد القرّاء والقراءات، واختلاف العصور والثقافات. فالنصّ قد يظلّ مقروءاً زمنا طويلاً بعد وفاة مؤلِّفه، فيخرج من زمن إلى آخر، ومن محيط ثقافيّ إلى محيط مغاير، ويترتب على ذلك بالضرورة اختلاف القراءات في عصر الكاتب وفي ما بعده"[٣].

بينما يعبِّر زمن الكتابة عن الزمن الذي أنشأ فيه الكاتب نصّه." وهذا المفهوم استغلّته تيّارات النقد التاريخي والاجتماعي في بيان التعالق بين النصّ وحياة صاحبه، ومتغيّرات العصر في وجوهها المختلفة، ولم تهتمّ به السّرديّات البنيويّة لانصرافها إلى النصّ في ذاته وفصلها بين المكتوب والكاتب"[٤].

١- السابق، ص٢٣١

٢- السابق، ص٢٣٢

٣- السابق، ص٢٣٦

٤- القاضي وآخرون، معجم السرديّات، مرجع سابق، ص٢٣٧

لكنّنا نعتمد هذا المفهوم ونرى أنّه يكتسب أولويّة في التحليل خاصّة في مقام تحليل السرد الحقيقيّ من خلال أجناس متعدّدة، مثل السيرة والسيرة الذاتيّة والمذكّرات .. الخ، وذلك لسببين أساسيين: الأوّل يبدو لنا أنّ هناك علاقة وثيقة بين الخصائص الشكليّة للنصّ، والفلسفة الجماليّة للمؤلِّف، أو التيّار الفني أو المرحلة التاريخيّة بمكوناتها السياسيّة والثقافيّة، والثاني نجد أهميّة تحليل زمن الكتابة من خلال تأثّر السّرديّات بمنجزات البحث التّداولي، الذي يؤكّد فيه أن كلّ نصّ ما هو إلّا خطاب متّصل بوضعيّة تواصليّة تجمع الكاتب والجمهور ومختلَف الظروف المحيطة بالإنتاج، ومن ثمّ فهو خاضع لطبيعة هذه الوضعيّة وتأثيراتها في أسلوبه وبنيته وأغراضه ومقاصده، "ويمكن النظر إلى زمن الكتابة في مستويين: عصر الكاتب وزمن الكتابة الفعلي. في المستوى الأول يكون النظر في العصر الذي يؤطّر حياة الكاتب في مختلف جوانبه الحضاريّة، وتأثيرها في مجمل إنتاج كاتب أو جماعة أدبيّة. وفي المستوى الثاني يتصلّ المفهوم بمرحلة محدّدة من حياة الكاتب، وبالفترة التي أنتج فيها النصّ".[1]

ويُعنى بحثنا هنا باستخلاص التأثير المباشر للفاصل الزّمني الذي عاشته الذّات من خلال مشاعر الاستلاب والعشق، والكرّ والفرّ في علاقاتها بالآخر القريب والبعيد، ومعاناتها في الشعور بالاغتراب في مقابل العالم الذاتي الذي اختلط فيه الحنين بالأنين عند تذكر الموطن الأثير، واستدعاء عوامل التبرير لجعل المذكرات وثيقة تبرئة وتبرير لما أقدمت عليه الذات خلال زمن مثّلت الحكاية فيه ماضياً، وعبّر الخطاب فيه تسلية، وردّ اعتبار.

ونسعى في ورقتنا إلى قراءة التمفصلات الزمنية التي وجدت في خطاب مذكرات السيّدة سالمة الذي وجدنا أن للزمن الفاصل وما حدث فيه أثرًا كبيرًا في انطلاق لحظة الكتابة وقرار سرد الحكاية، مركزين في ذلك على زمن القصّة في الحقيقة، ثم زمن الحكاية أو الخطاب، وزمن الكتابة، على افتراض أنّنا أحد الذين عاشوا زمن القراءة، وتلقيّنا النصّ بأبعاده السرديّة وفق ميثاق الكاتب في السيرة أو المذكرات، وهو ما صرّحت به في مقدّمة الكتاب في جزئه الأوّل.

هذا الهدف جعلنا نتبنى منطلقات تودوروف وجيرار جينيت في التعرّف على زمن القصّة وعلاقتها بزمن الحكاية المرتبط بزمن الخطاب المرتبط نوعا ما بزمن الكتابة. ونفحص أثر الزمن الفاصل بعد تحديد المسافة الزّمنيّة الفاصلة بين القصة والحكاية،

١- المرجع نفسه، ص٢٣٧

والتعرف على الزمنية والبؤر المنتقاة في النص للسرد، لنكتشف العلاقة الجوهرية بين الزمنين تاريخيا وذاتيّاً.

والحكاية وفق منظور جينيت "مقطوعة زمنيّة مرتين.. فهناك زمن الشيء المرويّ وزمن الحكاية (زمن الدّالّ وزمن المدلول)"[١]، ولمّا كانت زمنيّة الحكاية المكتوبة شرطيّة أدائيّة نوعاً ما، فإنّ الحكاية المكتوبة في المذكّرات تعدّ حادثة ككلّ شيء آخر في الزمن – الحقيقي– ثم الاسترجاعي وفق نوع الكتابة هنا؛ فقد وجدت في الفضاء، "وبصفتها فضاء يكون الزّمن اللّازم لاستهلاكها هو الزّمن الّلازم لعبورها واجتيازها"[٢]، لنصل بعد ذلك إلى زمن آخر هو زمن استدعائها أو استرجاعها – زمن الكتابة–.

ويشكّل كلّ استرجاع بالقياس إلى الحكاية التي يندرج فيها– التي ينضاف إليها– حكاية ثانية زمنيّاً ، تابعة للأولى في ذلك النوع من التركيب السّرديّ الذي صادفناه في النص وجرّبنا التحليل به؛ لنكشف الماهيّة التي سارت عليها الكاتبة في مذكّراتها؛ حتّى تؤثر في قارئها وتجعله متعاطفاً معها.

مثّل الاسترجاع في مذكّرات السيّدة سالمة العنصر الأبرز على اعتبار أن جنس المذكّرات قائم أصلاً على هذا العنصر، وقد تعدّدت صوره ؛ فظهرت الاسترجاعات المختلطه والاسترجاعات الخارجيّة، والاسترجاعات الدّاخليّة، والاسترجاعات التكميليّة، وظهر الاستطراد الاستعادي، وكلّها نجملها من خلال تجليّات تأثير الفاصل الزّمني الذي رسم علاقة شكليّة واضحة بين الزمن الحقيقي الوجودي للأحداث، وزمن الخطاب/ زمن الحكاية الذي نرى أنّه تطابق مع زمن الكتابة في المذكّرات.

وقد لاحظنا وجود الاندماجات السرديّة بين الحكايات من خلال الفصول، والتي بدت معقّدة في بعض الأحايين، ،هي ما ربطناها بالاسترجاعات المختلَطة، مثل حكيها عن أحداث ربطتها بأخيها ماجد مرّة، وبأختها خولة مرة أخرى، وبأخيها برغش مرة ثالثة.

وتقع الاسترجاعات المختلَطة – كما سمّاها جينيت – في نقطة يكون مداها سابق لبداية الحكاية الأولى ونقطة لاحقة لها، أمّا الاسترجاعات الدّاخليّة، فإنّ "حقلها الزّمنيّ يتداخل مع الحكاية الأولى؛ لأنّ وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى (الأساسيّة)، عن

١– جينيت (جيرار)، خطاب الحكاية – بحث في المنهج– ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامّة للمطابع الأميريّة، الطبعة الثانيّة، ١٩٩٧،ص ٤٠

٢– جينيت خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص٤٢

طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة أو تلك"[1]، والاسترجاعات الخارجيّة هي المؤثرات الزمنية الحاصلة خارج نطاق خطيّة السرد بشخوصه وأحداثه، بينما تعبّر الاسترجاعات التكميليّة عن الإحالات التي تضمّ المقاطع الاستعاديّة التي تأتي لتسدّ بعد فوات الأوان فجوة سابقة في الحكاية.

واكتنف الخطاب استعادات ذاتيّة تتّصل بالكاتبة، بما يخبر عن أفكارها ومبادئها ورغباتها، ثم استعادات موضوعيّة تكشف أبعادا تاريخيّة وإنسانيّة مثل قضيّة الرّق مثلاً.

نسعى إلى تحليل كلّ هذه النقاط من خلال تجليّات سرديّة كشفها لنا خطاب المذكّرات، ونرجو أن يكشف لنا التحليل الحجْب عن أمور أخرى تتّصل بجماليّات السّرد في المذكّرات، وتأثير الذاكرة في الأدب.

وصف المدوّنة (مذكرات أميرة عربية):

يعدّ الباحثون كتاب مذكرات أميرة عربية سيرة ذاتيّة للسيّدة سالمة بنت سعيد (١٨٤٤-١٩٢٤م)، والمذكرات Memories بحسب معجم السرديّات هي " جنس من أجناس القصّ المرجعيّ الوقائعيّ، إذ يفترض أنّها تقول ما حدث فعلاً، وتزعم الصدق والدّقّة ضمن ميثاق مرجعيّ معلَن منذ العنوان أو في الفاتحة."[2]

أمّا السيرة الذاتيّة Autobiographie فهي " أبرز كتابة للأنا، وأمتنها صلة بفنّ السّرد، وأشهر تعريفاتها كان ما كتبه فليب لوجون ١٩٧٥، في كون السيرة الذاتيّة قصّة ارتداديّة نثريّة يروي فيها شخص واقعيّ وجوده الخاصّ مركّزاً حديثه في حياته الفرديّة، وبوجه خاصّ في تاريخ شخصيّته، وعلى هذا يمكن استخلاص أربع ركائز مهمّة في السيرة: – شكل الكلام: قصة. نثريّة. – الموضوع المطروق: الحياة الفرديّة وتاريخ الشخصيّة، – منزلة المؤلِّف: التطابق بين المؤلِّف والرّاوي، – موقع الرّاوي: التطابق والشخصيّة الرئيسة، واعتماد القصّ الارتداديّ."[3]، ومن التعريف السابق الذي اعتمده معجم السرديّات نستخلص أهم الملامح الرئيسة للسيرة الذاتية التي يجب أن يتوفر فيها عنصر الصراع، ووجود بناء مرسوم ضمن صياغة أدبيّة، ولابد أن يكون النص لشخصّ مميّز وجد لديه الدوافع الفنية للكتابة عن نفسه، وسعى إلى التجرّد في تصوير الماضي، معتمداً في الكتابة على الصدق والصراحة والأمانة.

١- المرجع السابق،ص٦٠

٢- القاضي (محمد) وآخرون، معجم السرديّات، مرجع سابق، ص٣٨٠

٣- القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، مرجع سابق، ص٢٦٠

وبين مصطلح المذكرات والسيرة نقع في إشكال التمييز الذي وقع فيه باحثون قبلنا، لكننا يمكن أن نميّز بينهما من خلال مؤشرين: الأول هو نصّ الميثاق المرجعيّ الذي يوثّق فيه الكاتب جنس كتابته، والثاني شكل الكلام الذي قد تكون فيه السيرة الذاتيّة متداخلة مع فن أدبيّ آخر كالرواية أو القصّة.

في هذه المدوّنة نستعين بالزّمن الفاصل لتحديد ما إذا كان كتاب السيّدة سالمة كتاب مذكّرات أم سيرة ذاتيّة، وفق تصورنا ومعطيات النصّ المدروس.ننطلق في هذه الدراسة من فرضيّة وجود علاقة عميقة للزمن الفاصل الذي فصل وقوع الأحداث التاريخيّة في مكان الحدث (زنجبار)، وزمن الكتابة الذي كتبت فيه هذه المذكرات في مكان آخر هو(ألمانيا)، ولنفحص المدونّة لابد من التعريف بها.

يمكن تحديد ثلاثة أجزاء لكتاب "مذكرات أميرة عربية"، الأول منها حمل العنوان وترجم إلى العربية مرتان، ترجمه عبد المجيد القيسي من الإنجليزية إلى العربية، معتمداً فيه ترجمتين صدرت الأولى عام ١٨٨٨، ونشرت الثانية عام ١٩٠٥، وتقول سالمة صالح: إنّ القيسي حاول كما يذكر في مقدّمته التوفيق بين الترجمتين." لكن الأمر لم يسلم من بعض الأخطاء التي أخلّت بالمعنى العام. ويبقى للقيسي الفضل في تعرّف العرب على هذه الأميرة العربية المنسيّة. والترجمة الثانية قامت بها سالمة صالح. ترجمته من الألمانية إلى العربية مباشرة عام ٢٠٠٢، وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها في القراءة والتحليل.

أمّا الجزء الثاني والثالث فقد اعتنى بهما زاهر الهنائي، ونقلهما من الألمانية إلى العربية عام ٢٠١٦م، نزل الجزء الثاني تحت عنوان: " رسائل إلى الوطن" والجزء الثالث: " تكملة للمذكرات" ورد فيه نصّان طويلان أحدهما مثل التكملة، والآخر تحدثت فيه الكاتبة عن أعراف وعادات سورية، دخلت سورية من ميناء بيروت، وتعرفت على سمات المكان وسكانه، فكتبت ما تعرفت عليه، وانطباعاتها عن المكان والسكان.

وقد" نشأت كتابة المذكّرات في أوروبا قبل أن تنتشر في مختلف الآداب، إذ منذ أواخر القرن الخامس عشر ظهرت مذكّرات أعلام من وزراء، وقادة جيوش، وأشخاص مقرّبين من الملوك أو صانعي القرار، تروي تفاصيل فترة تاريخيّة عاشها الكاتب بأحداثها وأسرارها، وحوافّ قراراتها السياسيّة أو العسكريّة وتقلّباتها المختلفة."[1] وقد صرّحت السيّدة سالمة بانتماء كتابها إلى جنس المذكرات. فقالت في مقدّمة الكتاب: " وهكذا فإنّني لم أكتب

١- المرجع السابق، ص٣٨٠

مذكّراتي للنشر، وإنّما لأطفالي الذي أردت أن أترك لهم كوصية حبّاً أموميّاً صادقاً"[1]. وفي كلامها هذا ميثاق الكتابة المعروف الذي يصرّح فيه الكاتب عن جنس عمله.

ويبدو لنا أنّ السيّدة سالمة "لم تكتب هذه المذكّرات التي نشرتها ١٨٨٦م للنشر في الأصل، فقد دوّنتها وهي في وضع نفسيّ وجسديّ اعتقدت معه أنّها لن تعيش حتّى يبلغ أطفالها سنّاً تستطيع أن تروي لهم فيها شيئاً عن حياتها. لكنّ بعض أصدقائها أقنعها بنشر هذه المذكّرات"[2]، وبهذا ينتقل العمل من ملكية الكاتب إلى ملكية النصّ والمتلقّي.

المبحث الثاني: العلاقة بين زمن القصّة وزمن الحكاية:

يُعدّ الزمن مبحثًا فلسفيًّا قديمًا. وهو أيضا مبحث لغويّ يتّصل بكفاءة اللغة في التعبير عن الزمن، ومبحث أدبيّ يتّصل بانشغال الكثير من الأدباء في مختلف الثقافات والأجناس الأدبيّة بقضيّة الزمن وتأثيره في حياة الإنسان. ويشكّل الزمن عنصر القصّ وجوهره الفنّيّ؛ لأنّ الزمنية القصصيّة مرتبطة بحكاية قائمة بالضرورة على الحركة والفعل، متعاقبة أحداثها في الزمان أو متزامنة، ويتخّذ الرّاوي فيها موقعا زمنيّاً محدَّداً من الأحداث، ويمارس حريّته السّرديّة قليلاً أو كثيراً، فيصبح له دور رئيس في عمليّة المتابعة الدّقيقة للتعاقب حيناً، وضروب التحريف للمسار الزّمنيّ الحقيقيّ أو المتوهّم أحياناً أخرى، فيلخّص، ويحذف/ ويكرِّر.

ويتّصل زمن القصّة بزمن الخطاب/ زمن الحكاية، من حيث إنّها علاقة بين زمن الملفوظ وزمن التّلفّظ، ويأتي تعدّد المستويات الخطابيّة في كلّ عمل قصصيّ ليضفي تعدّديّة زمنيّة يمكن التمييز بينها، بداية بين زمنيّة داخليّة وزمنيّة خارجيّة. ترتسم الأولى في الخطاب القصصيّ نفسه، وتقع الثانية خارجه وتّتصل بالمؤلِّف والقارئ، وفي الزمنيّة الداخليّة نميّز بين زمن الحكاية أي زمن أحداثها، وزمن الخطاب، وهو يتعلّق بطرائق ترتيب الأحداث في الخطاب القصصيّ، ومدّتها، وتواترها، وزمن السّرد، أمّا الزمنيّة الخارجيّة فتّتصل بمستوى خارجي مفارق طرفاه الكاتب والقارئ، وفي هذا الإطار تبدو علاقات الاتّصال والانفصال بين زمن الكاتب كتابة، وزمن القارئ والقراءة.

أولا: الزمن ملك الكاتب

تمارس الذّات سطوتها في عمليّة البوح والكتابة، إذ لا تنقل الأحداث وفق سرد تاريخيّ وموضوعيّ، بل تسعى إلى فرض توجّهاتها ومحرّكاتها الدّاخلية إلى سرد قصّة أو مجموعة

١- رويته (إميلي)، مذكّرات أميرة عربيّة،ج١، ترجمة سالمة صالح، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦، ص٩.

٢- المصدر السابق، ص٦.

قصص توافق تلك التوجّهات، وفيها ترسل المبرّرات، وقد ظهر لدينا أنّ الخطاب في سيرة السيّدة سالمة قد تمظهرت فيه تجليّات البون بين زمن القصّة وزمن الكتابة من خلال محور أساسي هو شكل الكتابة في مذكّراتها.

عبّر شكل الكتابة الذي قُسّمت الفصول على أساسه عن رؤية انتقائيّة، فاختارت الأماكن الأثيرة، والشخوص المؤثرين في ذاكرتها، والتي نجزم أنّ لها دوراً في أحداث سيرتها. وظهر شكل الكتابة في فصول مختزلة تجوّلت فيه السيّدة سالمة في أماكن طفولتها ونشأتها، وأحداث دقيقة مثّلت نقطة تحوّل في حياتها، مثل وفاة والدها السيّد سعيد، وعبّرت بذاتيّة واضحة عن شخوص احتّكت بهم، وعايشت وجودهم في حياتها، وقد تفاوتت آراؤها فيهم، واختلف حجم السرد عنهم في كتابتها. وحمل الخطاب التجليّات الآتية – وفق قراءتنا الزمنيّة له–.

١- البؤر الزّمنيّة المنتقاة في كتابة المذكّرات:

نقلت البؤر الزمنيّة المسرودة في الخطاب عن تاريخ ولادة الكاتبة ونشأتها، توسّعت فيه عند الحديث عن نسبها وتاريخ والدتها، وسعت إلى شرح الصورة الاجتماعيّة لما كان سائداً ومعروفاً لدى كلّ من عاش في ذلك التاريخ، وعاصر فترة حكم آل سعيد لعُمان وزنجبار.

تقول السيّدة سالمة في مذكّراتها: " ولدتُ في بيت المتوني[١]، أقدم قصورنا في جزيرة زنجبار، وعشتُ هناك حتّى سنّ السابعة. يقع بيت المتوني على البحر، ويبعد حوالي ثمانية كيلومترات عن مدينة زنجبار، في محيط جميل للغاية، مختفياً تماماً في بستان أشجار جوز هند هائلة، وأشجار مانجو ونباتات استوائيّة عملاقة أخرى. استمدّ مكان ولادتي "بيت المتوني" اسمه من نهر المْتوني الصغير الذي يبعد بضع ساعات قادماً من الدّاخل، متشعّباً إلى عدد من الامتدادات التي تشبه الأحواض، يخترق القصر بأكمله ويصبّ خلف أسواره مباشرة في ذراع البحر الرّائع الذي ينشط فيه المرور، ويفصل الجزيرة عن القارّة الأفريقيّة."[٢]

يقوم التحليل الزّمنيّ لهذا المقطع على تعداد المقاطع التي ركزت عليها السيّدة سالمة، وتبدّلاتها الموقعيّة في زمن القصّة (زمن الحدث)، ويكشف المقطع عن فاصل زمنيّ يمتدّ سبع سنوات بين الولادة وزمن النشأة الأولى، اختزلته الكاتبة من خلال العنصر الزمنيّ الدالّ: "ولدتُ" و"عشتُ"، هذا الفاصل الزمني يعدّ فجوة رمنيّة يمكن أن يعبئها القارئ بجملة من الأحداث المتخيّلة عن أساليب التنشئة في بيوت السلاطين والحكّام في تلك الحقبة الزّمنيّة.

١– المتوني: كلمة من اللغة السواحيليّ التي يتحدّث بها أهالي زنجبار، وتعني النهر الصغير، سمي هذا القصر بهذا الاسم، لأنه يطلّ على نهر صغير في الجزيرة الخضراء.

٢– رويته (إميلي)، مذكرات أميرة عربية، مصدر سابق، ص١١

ويعدّ الجزء الثاني من المقطع استرجاعاً تستعيد فيه الذات ذاكرتها بوصف المكان وما يتضمّنه ويحويه، غلبت على الوصف مشاعر الحنين والألفة، وكأن الكاتبة تميل إلى استرجاع استعاديّ تتصوّر فيه نفسها جالسة في المكان الذي تحنّ للعودة إليه(استرجاع ذاتي تصوّريّ).ويظهر في المقطع أثر الزمن الفاصل بين وجودها في زنجبار واستقرارها في ألمانيا أثناء كتابة نصّ المذكّرات من خلال تعريفها للمسافة الفاصلة بين بيت المتوني ومركز المدينة في جزيرة زنجبار، إذ استطاعت أن تقدّره بحوالي ثمانية كيلو مترات؛ ممّا يشير إلى تلقّيها تعليما تطبيقيّاً، وممارسة ماديّة لمثل هذه الكميّات والمصطلحات العلميّة الخاصّة التي شاعت في المجتمعات الحديثة.

وفي مقطع آخر تقول: " لقد غاب عن ذاكرتي تقسيم الغرف، وعلى العكس لا زلت أتذكّر بدقّة تماماً الحمامات الكثيرة في بيت المتوني. كانت دزينة[١] من الغرف تقوم في صفّ في الطّرف الأقصى من الفناء، حتّى إنّ المرء ما كان ليستطيع الوصول إلى هذا المكان المنعش المحبوب في الأيّام المطيرة إلّا وهو يحمل مظلّة. وكان يقوم في الطّرف الآخر في معزل من غيره ما يسمّى بالحمّام الفارسي، وهو في الحقيقة حمّام بخار تركيّ ، فريد في طراز بنائه النفي في زنجبار."[٢]، يحضر في النصّ وعي الكاتبة بالدور الكبير للذاكرة عند ممارسة مرحلة التلفّظ في الكتابة، وهو ما يؤكّد أنّ " الذاكرة هي المخزن الذي ينتهي إليه ما يقع في متناولنا، وهي بذلك تشبه العليّة أو غرفة المواد المستعملة"[٣].

ويبدو لنا أنّ الكاتبة قد مارست التفكير بالذاكرة باعتبارها نظام استرجاع؛ فاستخدمت كلمة "ذاكرتي" بالفعل، ووصفت بدقّة المكان والانطباع الذي احتفظت به الذاكرة عن المكان، خاصة عند نزول المطر، وهذا يثبت لنا أساساً فلسفيّاً في تفسير ماهيّة الذاكرة؛ إذ "يميل كلّ من الحسّ الفطريّ والفلسفيّ إلى وصف عمليّة التذكّر بأنّها صور أو انطباعات"[٤] تطبع في دواخلنا ويسهل استرجاعها عند الحاجة، ويطبع الهُويّات أيضاً.

وتقول السيّدة سالمة في موضع آخر: " كان أجمل مكان في بيت المتوني هو البنديلة أمام البيت الرئيس الواقعة على البحر مباشرة، شرفة عظيمة مستديرة، كان باستطاعة المرء

١- دزينة: تعبير لفظيّ عربيّ يشير إلى العدد ١٢. وحضوره في النصّ يؤكّد تأثير احتفاظ ذاكرة الكاتبة بألفاظ لها خصوصيّتها في الاستعمال لدى العمانيين في زنجبار.

٢- رويته، مذكرات أميرة عربية، مصدر سابق، ص١٢

٣- ورنوك (ميري)، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص١٧

٤- ورنوك، الذاكرة في الفلسفة والأدب، مرجع سابق، ص٢٩

أن يقيم فيها حفلة كبيرة بشكل مريح، لو كان مثل هذا معروفاً أو معتاداً لدينا، كانت تشبه عجلة دوّارة ضخمة. وقد كان سقفها طبقاً للبناء مستديراً أيضاً."[١]، تسترجع الكاتبة عبر ذاكرتها المكانيّة أحد أجمل الأماكن في قصر والدها، وهو مكان حمل خصوصيّة في المسمّى عندما أشركت القارئ بخصوصيّة المسمّى الذي يعبّر عن ذاتها وهُويّتها.

وفي المقطع السابق "تتداخل الذاكرة مع المخيّلة، ويصبح متعذّراً التمييز التّام بينهما. كلاهما يتمثّل في التفكير بالأشياء في غيابها"[٢]، وهذا يفسّر اشتغال الذاكرة بتخيّل حفلة موسيقيّة في مكان خاصّ ومناسب تحتفظ به الذاكرة، ويظهر من خلاله تأثير الزمن الفاصل الذي يعكس انغماس الكاتبة في أجواء الحياة الأوروبية وتعايشها مع الطقوس الاجتماعيّة المنتشرة في أوروبا، حتّى ربطت ذلك بالمكان الذي تحنّ إليه.

٢- البؤر الزمنيّة المسكوت عنها:

لفت نظرنا اقتضاب الخطاب في المذكّرات عند الحديث عن والدة الكاتبة ووالدها، إذ سكتت الكاتبة عن أحداث لم تسردها، واختارت أن لا تفصّل الحديث عنها، فاكتفت بذكر عرق أمها الشركسي، ومن كانت تربطه علاقة بها من منطلق أصولها الشركسيّة، أمّا والدها فقد وصفته بالشخصيّة الجادة الغائبة الحاضرة: غائبة عن تفاصيل العلاقات المتباينة بين من يسكنون القصر، الحاضرة في المناسبات وتطبيق التقاليد الاجتماعية العمانيّة في زنجبار.

ولا تزيد معرفتنا بوالدة السيّدة سالمة –واسمها جلفيدان– عن قولها: "كانت أكثر صديقات أمي حميميّة أختي زيانة، وزوجة أبي مدينة. كانت زيانة وهي ابنة امرأة حبشيّة، في مثل عمر أمي، وكانتا تحبّان بعضهما حبّاً لا يوصف، وكانت زوجة أبي مدينة شركسيّة هي الأخرى، من هنا نشأت صداقتها لأمي؛ فقد كانتا وكذلك أيضاً سارة زوجة أخرى لأبي تنحدران من المنطقة نفسها."[٣].

لم تسترجع السيّدة سالمة في خطابها مواقف جمعتها بوالدتها، ولم نقيّم عمق علاقتها بها، ونحن نعلم عمق العلاقة الكبيرة التي تشحن البنت من شخصيّة أمّها، وهو مايخلق علامة استفهام لدينا في خطابها. كلّ ما نعرفه عنها أنّها حنونة وطيبة، وهذه صفات تشترك فيها البنات حين تصفن أمهاتهن. وظلّت تفاصيل الحكاية مع والدتها غائبة، مسكوت عنها.

١- نفسه، ص٢١

٢- ورنوك، الذاكرة في الفلسفة والأدب، مرجع سابق، ص٢٥

٣- رويته، مذكرات أميرة عربيّة، مصدر سابق، ص٢٣

سكتت السيّدة سالمة عن عمق علاقتها بالتاجر الألماني هاينرش رويته الذي كان يسكن قرب منزلها، واكتفت بالحديث عن زيارات خاطفة بينهما، بينما يذكر التاريخ أنّ السيدة سالمة كانت تحمل ابن هذا الرجل، وقد قرّرت الهروب والزواج به وهي في الشهر الرابع من الحمل، هذا السكوت يكشف يقين السيّدة سالمة بأنّه لا مخرج لها من ورطتها هذه إلا الهروب والزواج برويته، ولأنّها تعلم في يقينها حجم الخطأ الذي ارتكبته، وكيف ستكون ردّة فعل إخوانها وأخواتها منه، ويبدو أنّها علمت سرّ تدبير أخيها ماجد الذي أمرها بأداء فريضة الحج وإرسالها إلى مكّة، ليرسل إليها من ينهي حياتها هناك قبل أن تعود. ويكشف هذا قولها عندما عادت إلى زنجبار للمرة الأولى بعد تسعة عشر عاما: " لقد تركتُ وطني كعربيّة تماماً وكمسلمة مؤمنة، وماذا أنا الآن؟ مسيحيّة رديئة وأكثر قليلاً من نصف ألمانيّة"[١]. هذا ما انتهى إليه يقينها، لأنها تعلم قومها وكيف يفكّرون.

ولم تتحدّث السيّدة سالمة كثيرا عن دهاليز علاقتها بالحكومة الألمانيّة، وكيف استغلّت وضعها وعلاقتها بالأسرة الحاكمة لعُمان وزنجبار، من خلال مماشاتها لأوامر الحكومة الألمانية بوجوب الضغط والتواصل مع أهلها لتحصل على ميراثها، ولم تفسر لنا مقاطع بدت غامضة في مذكّراتها مثل قولها:" إنّه لمّما يخجلني أن أتطرّق إلى مسألة أخرى، غير أنّ إغفالي لها يمكن إن يفسَّر تفسيراً آخر ببساطة. كلّ من يعرف الأوضاع في زنجبار يعرف تماماً أنّ السلطان هو الحاكم في الأشياء الصغيرة، بينما يحكم في الأشياء الكبيرة كلّها القنصل الإنجليزي."[٢]، لقد عرفت السيّدة سالمة دهاء الانجليز وأيقنت أنها لن تحصل على شيء، لأنّ الانجليز لا يريدون أن يخسروا انصياع السلطان برغش لهم وتنفيذه لمطالبهم، من أجل امرأة ألمانية.

لم تدقّق الكاتبة أيضاً في مسألة الكراهية الدينيّة التي يكنّها أفراد عائلتها لها بعد اعتناقها المسيحيّة، وهو ما وجدنا له إشارة عابرة في نهاية الجزء الأول من المذكرات، أثناء سردها لأحداث زيارتها الأولى لزنجبار. تقول: " وقد عزّز في اعتقادي بأنّه ليس ثمّة كراهية دينيّة فيما يتعلّق بي بأي شكل. صادفتُ ذات يوم عربيين، تبادلت الحديث معهما،، وحين علمت أنّهما كانا من أقربائي– لم أتعرّف عليهما– قلت لهما: لو كنت قد عرفت لما تحدّثت إليهما، لأنّني لا أعرف كيف يشعر أقاربي في الظروف الحاليّة إزائي. فأجابا معاً على الفور بأنّهما لم يفكّرا في شيء غير أنّني لا زلت إبنة أبي، وحين ذكرت الدين، أجاب أحدهما: أنّ

١– رويته، مذكرات السيدة سالمة، مصدر سابق، ص٣٤٩

٢– السابق، ص٣٦٤

هذا المصير مقدّر عليّ منذ بداية العالم. نعم إنّ الله فرّقنا عن الوطن، هو الرّب نفسه الذي يصلّي له ويحمده كلّ النّاس."[١].

لقد ذكرت الكاتبة ما يتوافق مع رأيها، وسكتت عن مشاعر أقربائها الآخرين – وأخوتها أهمّهم– الذين كانت توقن في داخلها أنّهم غير راضين عمّا فعلت وأقدمت عليه. وتكشف القراء النسقيّة لنصّ المذكرات انتقائيّة عمليّة الاسترجاع الذي مارسته الذات في زمن الكتابة، الذي يكشف تأثير الزّمن الفاصل بين وقت هروبها من زنجبار، وزمن كتابة المذكرات، لتخلق توافقاً نفسيّا كبيرا بين وطنها الذي تحب وتحنّ، وبين أولادها الذين تكتب لهم، فهي تخطّط أن يحب أبناؤها وطنها كما أحبته، رغم أنّهم لم يسكنوه أو يعيشوا فيه.

ثانياً: الاسترجاعات الزمنية وشعريّة السرد:

مثّلت شعريّة السّرد جانباً مهماً من جوانب تأثير الزّمن الفاصل بين زمن الحكاية وزمن الكتابة، إذ صقلت شخصيّة السيّدة سالمة برؤى الشرق وأحلامه من خلال الحنين والأنين، وازدادت صلابة مع المسؤوليّة عن الأبناء والمعاناة في ألمانيا، في صورة تكشف نقدها للطقس والماديّة وطبائع الآخرين، ويظلّ الشرق بسحره ودفء العواطف فيه يغذّي سردها بالعاطفة. هذا نقرأه عندما نتأمّل المقطع التالي: " ليس هناك أصعب شيء لتحمله أكثر من أن يتصارع الإنسان مع نفسه. ولكن من الجيد ألا نسلم أنفسنا المتأزّمة كلّ يوم إلى الشكّ والحيرة؛ لأنّ العالم الذي لا مشاعر له ليس لديه تفهّم صحيح لما نشعر به ونحسّه في أعماقنا. فمن يحسّ بأتراحنا وأفراحنا هم أصدقاؤنا الحقيقيّون فقط، وليس العالم الأجنبيّ، وفي ذلك الوقت كان أصدقائي –باستثناء زوجي– تقريباً مختلفين عنّي. لو كنتُ وُلدت في القسطنطينيّة أو القاهرة وتربيتُ فيهما حيث الثقافة الأوروبيّة قد توغّلتْ فيهما منذ زمن، لما أحسستُ ربما بتباين الشرق والغرب بهذا القدر، ففي كلتا المدينتين توجد منذ وقت طويل عادة أن يُعهد بتربية البنات الناشئات إلى مربيّات أوروبيّات، والعادة أيضاً أن يُعلّمن الموسيقى بجانب اللّغات الأوروبيّة المختلفة، وكذلك الأكل على النمط الفرنسيّ، أي الأكل على الطّاولة بالسّكين والشّوكة..."[٢]

يكشف النصّ شخصيّة ناضجة اطّلعت على ثقافات متعدّدة، وتعرّفت على عادات لشعوب مختلفة، ففي المقطع السابق شحن لتاريخ شعوب وأزمنة كثيرة تختصرها عادات

١– السابق، ص٣٦٧

٢– رويته (اميلي)، سالمة بنت سعيد، رسائل إلى الوطن، الجزء الثاني من مذكرات أميرة عربيّة، ترجمة، زاهر الهنائي، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص٥٦

وثقافات تباينت مع ما نشأت عليه في زنجبار. زنجبار الوطن الذي وصفته في الجزء الأول بالمجتمع البسيط غير المتكلّف، رغم ما تسكنه من خرافات، إنّ المقارنة بينها، وبين من نشأت في القسطنطينيّة أو القاهرة، تبتر حاجز الواقع والزّمن، وتنطلق في أفق التخيّل والجزم لتتمكّن الذات من الوصول إلى حالة من التفسير والتخفيف من حدّة الموقف وهوله في نفسها، لأنّها وجدت في كلّ أمر يجب أن تتعلّمه وتتعوّد عليه في ألمانيا مشكلة وعقبة، احتاجت فيها إلى زمن طويل حتّى تتقنه، وتمارسه بصفة طبيعية،خاصّة ما نقلته في وصف معاناتها حتّى تعلمت اللغة الألمانيّة.

وفي الجزء الأول تحكي الكاتبة عن مغامرتها في الانضمام مع أختها خولة وآخرين من أخوتها وأقاربها للثورة والانقلاب على أخيها ماجد. الذي تولّى الحكم بعد والدها، مع أنّها كانت تتعاطف معه قبل تولّيه الحكم، وتذكر صفاته النبيلة ورعايته لها، تقول في المذكرات: ".. كان لدى الحرّاس أمر صارم أن يرموا الشّخص الذي يرتابون فيه في الحال، وهو ما يثبت بوضوح أنّ المرء لم يكن يحلم بجرأتنا، وإلّا لأصدر تعليمات أخرى دون ريب. كنا وكأنّنا نقف على فوّهة بركان يمكن أن ينفجر في أيّ لحظة ويبتلعنا.."[1]، ينقل التعبير لحظة مسترجعة كادت فيها الكاتبة أن تفقد حياتها، وهي حادثة تكشف الصراع الداخليّ بين الأخوة على الحكم وتولي السلطة، إنّه الصراع الذي أذكته التدخّلات الخارجية –خاصة الوجود الإنجليزي– وهيأت له الظروف الأسريّة المفكّكة التي تعددت فيه الأمهات والسراري، وكثر من خلاله الأخوة والأخوات، وانتشرت بينهم الانقسامات.

يبدو تعبير الكاتبة بقولها: "كأنّهم على فوهة بركان" استحضاراً لثقافة مكتسبة منظورة من بيئة أخرى تعرف البراكين، فقاربت الكاتبة، من خلال لحظة المشابهة، بين لحظة الخروج في وجه الحراس، ولحظة انفجار البركان، لحظتان زمنيّتان فارقتان بين الحياة والموت، كشف التعبير تأثير الزمن الفاصل في صقل الثقافة والتعبير من جهة، وتلوين الأسلوب بشعرية خاصّة من خلال المشابهة، لتقرّب للقارئ –وعنت هنا أبناءها– صورة تعرّضهم للخطر، وأنهم قد يموتون في أيّ لحظة، والصورة الواردة كانت قريبة من ذهن المتلقّي، إذ إنّهم يعرفون البراكين أو شاهدوها.

١– رويته، مذكرّات أميرة عربية، ج١، ص٢٩١

ثالثاً: الذاكرة والأدب وأزمة الهُويّة عند صاحبة الكتاب:

جاء في الجزء الثاني من كتاب المذكّرات والذي حمل عنوان"رسائل إلى الوطن": "هل كان الوضع مختلفاً معي عندما ألقي جسدي أوّل الأمر في هذا الوسط؟ احتجت إلى سنين لأُفيق من هول صدمة ما كان يحيط بي، وما كنت أسمعه وأراه بمرور الوقت؛ فاختراعات الناس هنا عموماً مذهلة جدّاً، وهي على أيّ حال تُظهر تفوّقهم العقليّ، ولكنّ فيها – حسب مفهومنا– بعض الشيء من الجديّة المبالغ فيها، إذ ليس من السهل علينا استيعاب ذلك من منطلق تصوّراتنا. وهم إزاء الأجنبيّ مهذّبون عموماً؛ إذ يتمتّع المختلف عنهم دائماً باهتمامهم ومشاركتهم، لكن في مقابل ذلك يواجه الجديد على هذا المجتمع أنّى اتّجه، طغيان الواقعيّة حدّاً كبيراً يدفعه قسراً إلى الانعزال لضعف الإدراك. "[١]

المقطع السابق يحوي زخما من الأزمنة، زمن الصدمة الأولى في ألمانيا، وزمن التعرّف على اختراعات الناس في أوروبا،وإدراك تفوّقهم العقليّ، وزمن الوصول إلى قناعة أن الماديّة التي يعيشها الناس في ألمانيا وأوروبا بصفة عامّة مبالغ فيها من وجهة نظرها؛ لكونها عربية الأصل والنشأة. أزمنة كثيرة متلاحقة تكشف أزمة الذات عند الكاتبة، إذ لم تدر أتكتب عن نفسها أم تكتب عن الآخر؟ ولا تعرف من هذا الأخر ؟ أهم الألمان أم هي ؟ إذ أصبحت تنتمي إليهم اجتماعيّاً ودينيّاً، هذه الذبذبة النفسيّة أبان عنها وفضحها توالي الأزمنة وتعدّد الحكايات في المقطع السرديّ نفسه، الأمر الذي يدركه القارئ في خطاب بدت فيه الكاتبة مصدومة مهزوزة، طغى عليها الإعجاب والانبهار بالآخر تارة، والنقد والعودة إلى الذات وأصلها تارة أخرى" ممّا أربك القارئ وأوقعه في حيرة، أيقرأ لكاتبة من منطلق أصلها ونشأتها، أم من منطلق هويّتها الجديدة وانتمائها للألمان؟

وتقول في مقطع آخر: " قرّرت أنّ من الأفضل لي أن أظلّ مخلصة لديني القديم في البداية، على الأقل حتّى أشعر بسلام داخلي، فلا شكّ أنّه من الأفضل لي ألف مرّة من أن أكون مسلمة بدلاً من كوني غير مسيحيّة من القلب ولا مسلمة. وبهذا التّصدّع الكبير في نفسي دخلتُ أوروربا، الحضارة المقدّسة. دخلت مع نفسي في صراع مرير، ولا يدري أحد كم قاسيت في داخلي، فحتّى زوجي الحبيب لم أكن أصارحه على الإطلاق. فقد كنّا مختلفي الآراء في هذه المسألة"[٢]، يفضح النص مشاعر الذات المتصارعة، في زمن استعاديّ ذاتيّ لم تكن تدركه غيز الكاتبة، بما عانته في لحظات الصراع بين الإسلام والمسيحيّة.

١– رويته (اميلي)، سالمة بنت سعيد، رسائل إلى الوطن، مصدر سابق، ص١٧

٢– نفسه، ص٢٥

يكشف الزمن مرور الذات بمراحل تفكير عديدة، أُنهكت فيه الذات من الداخل، وأصيبت بعدها بحالة من التصدّع وعدم الثبات.. إنّها أزمنة صغيرة تمتدّ لثوان أو دقائق لا يدركها الآخرون ممّن هم حول من تسرد، غير أن الذات تشاركها القارئ ليشاركها لحظات الصراع المشحون بأزمنة دقيقة بين الكرّ والفرّ، بين البقاء والثبات وبين التغيير. وتبدو حالة التشظي الزمنيّ الدقيقة واضحة في خطاب السّرد من خلال الاسترجاع الذي تستعيد فيه الذات جملة تلك المشاعر أثناء الحدَث، إذ إنّ التأثير واضح في القدرة الكبيرة للتعبير عن ذلك الصراع وفق التشظي اللحظيّ للزمن وقت المعايشة. وهنا يتأكّد لدينا حقيقة مفادها إنّ "الذاكرة ليست مجرّد شيء نستثيره عن عمدٍ، ولكنّها أيضاً شيء يأتي مشحوناً بالعاطفة، ويلقى أشدّ التقدير. ولكن من الضروري أن نبقي نصب أعيننا الجانب الفسيولوجي"[1].

يمكن توضيح الرابط بين الذاكرة والهُويّة وعلاقتهما بالزمن في خطاب المذكرات من خلال ما أثرّ به الزمن الفاصل على المستوى الثقافي والاجتماعي للكاتبة في زنجبار – زمن القصّة– وفق الجدول الآتي:

مستوى وعي الذات	الزمن	الهويّة	الذاكرة
مفكك -مقيّد بسبب الأفكار والعادات- مسؤولية فرديّة عن ذاتها فقط	شعور شخصيّ ذاتيّ	الهويّة شخصيّة	فرديّة (شخصيّة)

١– ورنوك، الذاكرة في الفلسفة والأدب، مرجع سابق، ص٢٨

أمّا أثر الزّمن فيظهر من خلال الحسّ الإنسانيّ بالزّمن الذي حفّز الذاكرة أن تعمل على ثلاثة مستويات: المستوى الداخلي أو الذاتي، والمستوى الاجتماعي، والمستوى الثقافي وهو ما يكشفه الجدول الآتي:

مستوى الوعي	الزمن	الهُويّة الشخصيّة	الذاكرة	التأثير
جماعي اتّصالي مع الآخر	شعور تواصلي مع الجميع حنين وشوق للمكان والزمان الأثيرين	الهُويّة الاجتماعيّة بصفتها أُمًّا لأبناء ألمان	اتصاليّة حضاريّة مشحونة بثقافة العلم صور محمّلة بنقد للماضي وما فيه	الاسترجاع بات ذهنياً: (أثيرًا وخاصّا تعيش فيه الذات ماضيها الجميل) موضوعيّا (يستعيد صور الماضي بحنين يغلفه النقد) طوباوياً: (تستعيد الذات ما تريد وتسكت عمّا يشوه صورتها) مقارناً: (قارنت فيه الكاتبة بين طقوس وعادات الشرق مقابل أسلوب الغرب وعاداتهم اليوميّة.

الخلاصة:

ركّز خطاب المذكّرات على تقنية الاسترجاع الزمني، على اعتبار أنّ الماضي واستعادته كان يخلق لدى الكاتبة توافقاً نفسيّاً يعيد للذات توازنها، وقد ظهر الاسترجاع وفق أشكال مختلفة في الخطاب منها:

- الرواسب الباقية في ذاكرة الكاتبة، فمنها ما تتذكّره ومنها ما قد يغيب عن ذاكرتها.
- البناء الاجتماعي أو ما يسمّى بالتنشئة الاجتماعيّة، إذ إنّ " الطبيعة المزدوجة التي تميّز الماضي الإنساني تجعله ليس فقط أثراً من آثار الذاكرة الداخليّة للفرد، أو رمزاً من الرموز الخارجيّة العديدة، وإنّما صورة أو سرد حكائيّ يحمل من خلاله السيرة الذاتيّة والتجارب الشّخصيّة أيضاً"[١].

ويتحدّ الشكلان كلاهما في التأكيد على تأثير الزمن الفاصل بين زمن القصّة وزمن الكتابة؛ لأنّ مستوى الوعي الذي تمثّله الذاكرة ظهر معتمداً على التنشئة وعلى نظم الاتّصال بالجماعة، وبدت الذاكرة مشحونة بالصور التي تسترجع عبر الزمن، في خطاب تتسرّب فيه المقارنة بين حين وآخر بين الجماعة التي إليها تنتمي الكاتبة في الماضي، والجماعة التي أضحت تحسب بالانتماء إليها، فتفهم الذاكرة هنا بوصفها إحدى وظائف العمليّة الاجتماعيّة؛ لأنّ الكاتبة تمكّنت من خلالها العيش في مجموعات أخرى غير التي نشأت معها، ومجتمعات جديدة غير التي عاشت معها.

مارست الذات استراتيجية الاسترجاع الزمني في عدة صور، منها ما كان ذاتيّاً: تعيش فيه الذّات مع ذكرياتها وزمنها الأثير وصورها الخاصّة، فبدا ذلك أنّه تكنيك تخلق من خلاله الكاتبة عالماً جديداً متخيّلاً تفرّغ – من خلال استدعائه– الذّات الضغوط والمشاعر المتأزمة لديها. وظهر الاسترجاع في صورة موضوعيّة تسرد فيه الكاتبة أحداثاً تاريخيّة وصوراً يعرفها من كان معنيّا بالتاريخ والحياة في عمان وزنجبار. ومنها ما كان طوباويّاً مسكوتاً عنه في الخطاب؛ لأنّ الهدف من الخطاب ترك صورة جميلة للذات وماضيها، تحافظ من خلاله الكاتبة على احترام أبنائها وتعاطفهم الدّائم مع تضحياتها.و عبر الخطاب أيضا عن استرجاع محمّل بنقد صور الماضي، من منطلق تأثير الزمن في صناعة وعي اجتماعيّ وحضاريّ اكتسبته الكاتبة خلال تسع عشرة عاما من العيش في أوروبا – ألمانيا بالتحديد–.

إنّ الوعي بالزمن يظهر من خلال تأثيره في الذات، وما يدفعها إلى صناعة الحدث، وكلّ ذلك يتجلّى في الخطاب ويكشفه السرد.

١– أسمن (يان)، الذاكرة الحضاريّة والذاكرة الاتصاليّة، ترجمة علي عبد الحفيظ، مجلة فصول، عدد خاص بتحليل الخطاب، المجلد ١/٢٥، العدد ٩٧، خريف ٢٠١٦، ص٢٣٨

المصادر والمراجع:

- أسمن (يان)، الذاكرة الحضاريّة والذاكرة التّاليّة، ترجمة علي عبد الحفيظ، مجلة فصول، عدد خاص بتحليل الخطاب، المجلد ١/٢٥، العدد ٩٧، خريف ٢٠٠٦.
- الأطرش (رابح)، مفهوم الزّمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانيّة، جامعة فرحات عبّاس، سطيف، مارس ٢٠٠٦.
- جينيت (جيرار)، خطاب الحكاية – بحث في المنهج– ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامّة للمطابع الأميريّة، القاهرة، الطبعة الثانيّة، ١٩٩٧.
- رويته (إميلي) أو السيّدة سالمة بنت سعيد آل سعيد، مذكّرات أميرة عربيّة، ج١، ترجمة سالمة صالح، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦.
- رويته (إميلي) أو السيّدة سالمة بنت سعيد آل سعيد، رسائل إلى الوطن، الجزء الثاني من مذكّرات أميرة عربيّة، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٦.
- القاضي (محمد) وآخرون، معجم السّرديّات، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.
- ورنوك (ميري)، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.